

اللغة العربية وتواصل المحضارات

أ.د. حامد طاهر

(نص المحاضرة التي ألقاها أ.د.حامد طاهر

بمناسبة احتفالية كلية دار العلوم بيوم

المعالمي لغة العربية بدعوة من مركز التدريب

الملغوي 14 ديسمبر 2015]

تمهيد :

في اليوم العالمي للغة العربية، يطيب لي بحق أن أشارك في هذه الجلسة الاحتفالية التي يقيمها مركز التدريب الملغوى بكلية دار العلوم، وهي الكلية التي حملت مسئولية تعليم اللغة العربية وأدبها لآلاف الخريجين من مصر والبلاد العربية والإسلامية على مدى 140 عاماً، وكان نجاحها في هذا الصدد موضع تقدير وإعجاب لدى تخبة من كبار العلماء والأدباء الذين عرّفوا فضليها، ومن أشهرهم الإمام محمد عبد العزى، والشيخ مصطفى عبد المرازق، وأمير الشعراء أحمد شوقي، وعلى المجرم، والعقاد، وكان لطه حسين منها موقضاً، حمل عليها في المأول، ثم عاد فاعترف بفضليها في الثاني، ويكتفى أن ذكر له أنه هو الذي دعا إلى ضم دار العلوم لتصبح أحدى كليات جامعة القاهرة سنة 1946.

وفي هذا اليوم أيضًا، لا بد أن ذكر بالفضل والمعرفان منشئ دار العلوم المهندس الكبير على مبارك، والذي أقامها في المبدية على غرار المكوليج دي فرنس في باريس، وهي المؤسسة الثقافية والعلمية رفيعة المستوى التي كان وما زال يحضر فيها كبار أساتذة جامعة السوربون بعد احالتهم للمعاش، ويحضر محاضراتهم النخبة المثقفة من الفرنسيين الراغبين في المعرفة من شتى التخصصات الإنسانية. كان هذا سنة 1871، ثم ما ثبت أن حولها علي مبارك إلى مدرسة عليا في العام التالي مباشرة، بحيث تكون نظامية يختار لها مجموعة من أئدب طلاب الأزهر، ويحاضر فيها بعض شيوخه الكبار في النحو والبلاغة والتفسير، إلى جانب مجموعة من العلماء الأجانب الذين كانوا يحضرون في علوم النبات، والمسك الحديدية، والفالك والطبيعة ..

وقد ظل هذا المطبع الموسوعي هو المسماة الغالبة على دار العلوم وانعكس على ثقافة طلابها وخربيجها، وهو الأمر الذي جعلهم يتصدرون، بكل كفاءة، كل المناصب التعليمية والإدارية التي أنيطت بهم. ونظرة على حال التعليم المصري في الخمسين سنة الأولى من القرن العشرين تؤكد أن خريجي دار العلوم هم الذين نهضوا بحقيقة مستوى اللغة العربية وآدابها، وكان منهم المدرسوون المتميزون، والموجهون الأنكفاء، وهذا هو أحمد شوقي يسجل طرفاً من ذلك في قصيدة المرائعة عن دار العلوم حين يقول:

أنت كالشمس رفرفا، والسماء كين رواقا، وكالمجرة صحنا

لو تسترت كنت كالكعبة المغّراء ذيلا من الجلال وردنا

إن تكون للثواب والبر داراً

أنت للحق والمراشد مخنٍ

قد بلغت المكمال في نصف قرن

كيف إن تمت الملاوة قرنا

ياعاكاظا حوى الشباب فضاحا

ذرشين في المجمع نسنا

بِئْهُمْ فِي كَنَانَةِ اللَّهِ ذُورًا

مِنْ ظَلَامٍ عَلَى الْبَصَارِ أَخْنَى

عَلِمُوا بِالْبَيْانِ، لَا غَرَبَاءٌ

فِيهِ يَوْمًا، وَلَا أَعْاجِمَ لَكُنَا

فَتَيَّةُ مُحْسِنُونَ، لَمْ يُخْلِفُوا الْعِلْمَ رَجَاءً، وَلَا الْمَعْلُومَ ظَنَا

صَدَعُوا ظُلْمَةً عَلَى الْمَرِيفِ حَلتْ

وَأَضَاءُوا الصَّعِيدَ سَهْلًا وَجَزْنَا

مَنْ قَضَى مِنْهُمْ تَفْرِقُ فَكِرًا

فِي نَهْيِ الْمَنْشَئِ أَوْ تَقْسِيمِ ذَهَنَا

*

ذَادَ دَارَ الْعِلُومَ : إِنْ شَئْتَ يَاهَائِشُ ، أَوْ شَئْتَ ذَادَهَا يَا سَكِينَا

قول لها يا ابنة المبارك ايه

قد جرى كاسمه أمرتك يمنا

ثم يحث أبناء دار العلوم قائلاً :

النبوغ النبوغ حتى تنصلوا

رأيه العلم كالهلال وأسني

نحن في صورة الممالك، ما لم يصبح العلم والمعلم منَ

لَا تنادوا المحصون والمسْفُن، وادعوا المعلم ينشئ لكم حصونا وسفنا

إن ركب الحضارة اخترق الأرض، وشق السماء رحبا ومزنا

ويختتمها أخيراً بقوله :

قد أنى أن نقول (نحن)، ولما نسمع أبناءنا يقولون : (كنا)

أما الإمام محمد عبد العزى الذى كان حريصاً حتى فى فترة مرضه الأخير على حضور امتحانات دار العلوم فهو الذى قال عنها كلمته المشهورة :

(إن اللغة العربية تموت في كل مكان، وتحيا في دار العلوم)

اللغة العربية وخصوصيتها

يكاد عمر اللغة العربية يصل إلى ألفى عام. فهي أذن من أقدم لغات العالم. وقد انقرضت معظم اللغات التي عاصرتها، أو حتى جاءت بعدها، أما هي فقد ظلت باقية، وحية، يتواصل بها حوالي ثلاثة ملليون نسمة هم سكان البلاد العربية، ويقبل على تعلمها العديد من غير الناطقين بها. وبالطبع يرجع السر في بقائها، أو بالأحرى خلوتها إلى نزول القرآن الكريم بها، وحفظها للسنة النبوية، ثم احتضانها لموسوعة ضخمة من المتراث العربي والإسلامي الذي لا يكاد يدانيه تراث أي أمّة من الأمم العالميّة.

وليس القرآن الكريم فقط هو مفجر الحركة العلمية والعلقانية لدى المسلمين، والمحرك الأساسي لقيام حضارة الإسلام، وانتشارها في ربوع العالم القديم، واستمرار معالمها حتى اليوم، بل إنه أيضًا هو الذي حافظ - وما يزال - على صمود اللغة العربية، رغم ما مر بها من كوارث وأهوال.

فبفضل القرآن الكريم، وحرص المسلمين على حفظه وتحفيظه لأبنائهم، ظلت اللغة العربية مكتوبة ومسموعة ومفهومة لكل العرب، وبالنسبة للMuslimين من غير العرب، فإنهم يحرصون على حفظ بعض آياته ليؤدوا بها صلواتهم اليومية. وأذكر أنني عندما زرت باكستان من عدة سنوات، وجدت لديهم قناة تليفزيونية تظل طوال اليوم تبث تلاوة القرآن الكريم بصوت الشيخ عبد الباسط عبد المصمد.

ويمكن القول بكل ثقة إن القرآن الكريم عندما أنزله الله تعالى باللغة العربية قد ضمن لها البقاء والاستمرار؛ ومما يطمئن نفوس العرب والمسلمين في هذا الصدد قوله تعالى : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الْكِتَابَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) (سورة الحجر : آية ٩).

ثانيًّا : احتضان اللغة العربية لموسوعة السيرة والسنّة النبوية، والتي تعتبر هي المصدر الثاني للإسلام.

ومن المعروف أن سيرة الرسول ﷺ وسنّته الشريفه يمثلان التطبيق العملي لمبادئ القرآن الكريم، وتعاليمه النظرية. وحين سئلت المسيدة عائشة، رضي الله عنها، عن خلق الرسول ﷺ قالت : كان خلقه القرآن.

وباعتبار الرسول ﷺ هو الأسوة الحسنة لجميع المسلمين، فقد جرى الاهتمام الشديد بجميع أقواله، وأفعاله، وتقريراته. وقد تخصص في هذا العمل المجليل عدد كبير من علماء المسلمين، الذين أضافوا للمعرفة الإنسانية علمين مهمين هما : علم مصطلح الحديث، وعلم نقد الرواية .

ومن المجدي بالذكر أن نشير هنا إلى أن عدداً لا بأس به من علماء المهندسين المسلمين قد اهتموا اهتماماً خاصاً بالسنة النبوية، فساهموا أسهاماً حضارياً في جمعها، وتبويتها، وطبع العديد من مصادرها الأساسية.

ثالثاً: المتراث العربي الذي يتناول علوم اللغة والبلاغة ودواوين الشعر العربي، وكتب الفقه، والفلسفة، والتاريخ.. بالإضافة طبعاً إلى العلوم التجريبية كالطب والملك والنبات، والميكانيكا، والمكيمياء.. الخ. وهذا المتراث المدون باللغة العربية من المضخامة بحيث لا يدانية تراث أي أمة من الأمم الأخرى. ولعل العارفين بأماكن مخطوطات هذا المتراث يدركون جيداً مدى حجمها في مكتبات العالم المختلفة، وحسبنا أن نشير هنا إلى أن ما طبع أو حقق من هذه المخطوطات لا يكاد يبلغ عُشر الموجود منها.

ومما يثير المأسى أن المستشرقين، والباحثين الأجانب يمكنهم الاطلاع بسهولة على تلك المخطوطات أكثر مما يتاح للباحثين العرب والمسلمين. وتلك مسألة على درجة كبيرة من الأهمية، وتقع مسؤوليتها على الجامعات ومراكز البحوث العربية التي ينبغي أن تطالب مكتبات العالم الموجود بها المتراث العربي والإسلامي بتصوير تلك المخطوطات لإضافتها منها، إن لم يتيسر الحصول عليها.

ولما يفوتنى الإشارة هنا إلى أن مكتبات تركيا وحدها تحتوى على كمية كبيرة جداً من المخطوطات العربية، والتي يصعب على الباحثين العرب الوصول إليها، أو حتى تصويرها، مع صعوبة استفادته الآتراك بصورة مباشرة منها.

ذهب بعض الباحثين العرب والمسلمين إلى محاولة تفضيل اللغة العربية - من حيث كونها لغة - على سائر اللغات الأخرى. وقد تعرض ابن حزم الأندلسي (ت 456هـ) لهذه المسألة ، وأكثر أن اللغة العربية **كغيرها** من اللغات ليست سوى أداة للتواصل بين أبنائهما. أما أفضليتها فقد جاءت من خارجها، حين نزل بها القرآن الكريم. وبالتالي فإن اللغة العربية التي تعتبر لغة قديمة (مثل السنسكرينية في الهند، والبهلوية في بلاد فارس، والإغريقية لدى اليونان ..) قد استمرت لغة حية، بينما ضعفت تلك اللغات حتى انتهى بها الأمر إلى الاختفاء تحدث أو حل محلها لغة أخرى أكثر تطوراً، أو لغة جديدة تماماً.

والسؤال الآن : هل توجد في اللغة العربية عوامل ذاتية هي التي حافظت وما تزال على استمرارها حية على ألسنة أبنائها، وأقلام كتابتها وأدبائها؟

وللإجابة عن هذا السؤال كتب العقاد عن عبقرية اللغة العربية ووصفها بأنها لغة شاعرة معتمداً على كثرة مفرداتها ومترادفاتها، واستخدامها للزمن في أفعالها ، وكذلك إلى بلاغة تراكيبيها وجمال جرسها كما خصص لها دعاً عثمان أمين فصلاً هاماً في كتابه عن الجونية، تحدث فيه عن بعض خصائص اللغة العربية والتي اعتبرها مزايا خاصة بها، ومنها : المثالية الأصلية، والحضور الجواني، وصدارة المعنى، والإعراب والإبانة، ورسم المظال والآدوان ، والحرص على الإيجاز والتركيز مع دقة التعبير، والمدعوة إلى الحركة والاتجاه إلى القوة، والمعنى والمفهوم قبل النطق والسمع (ص183).

وفي المقابل من ذلك، ذهب رفاعة الطهطاوى فى كتابة الشهير (تلخيص الدايرى) إلى أن تعلم اللغة الفرنسية أسهل من تعلم العربية. وهى ملاحظة مهمة، لا تنتقص من قيمة اللغة العربية بقدر ما تشير إلى عدم قيام المتخصصين فيها بدورهم الأساسى فى محاولة تبسيط مناهج تعليمها، والعمل المتواصل على الإفاده من منجزات المتتطور الملغوى فى كل لغات العالم المعاصر.

وإذا كان لى من تعقيب سريع على مجموعة المزايا التى ذكرها بعض الكتاب للغة العربية، فإننى استطيع أن أقرر هنا - وقد درست كلًا من اللغة الروسية واللغة الفرنسية - أن هذه المزايا موجودة فى هاتين اللغتين. فالمفردات كثيرة، والتراكيب دقيقة، وموسيقية، والإعراب موجود فى اللغة الروسية المتنى يوجد بها (14) حالة اعراب فى مقابل الحالات الأربع الموجودة باللغة العربية. وبالتالي فإن المطلوب هنا هو المتوجه لخدمة اللغة العربية، والنهوض بها من خلال منظومة، سبق أن اقترحها، وتنحصر فى إيجاد خمس أدوات ضرورية ما زالت غائبة حتى الآن، وهى :

1- وضع قاموس عصرى للغة العربية.

2- وضع قاموس للأفعال، واسنادها للضمائر.

3- وضع قاموس للأدوات واستخداماتها المختلفة.

4- تأليف كتاب مبسط لقواعد اللغة العربية.

5- وضع كتاب للنصوص الأدبية والعلمية يساعد المتعلمين على تطبيق المفهود واستخراجها.

اللغة والعربية على المسنة أبنائها

ما زالت اللغة العربية - كما سبق القول - لغة حية، يتواصل بها ما يقرب من ثلاثة ملايين شخص في البلاد العربية، وعدد كبير من هم خارج المنطقة العربية. وقد جاء الاعتراف بها ضمن اللغات المستعملة في محاكم الأمم المتحدة في ديسمبر 1973 تطويجاً لمكانتها التي تستحقها بين لغات العالم المعاصر، أما مراكز البحث في سائر الجامعات الكبرى فإنها تهتم بها، من خلال المطالع وتحليل كل ما يصدر بها في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية.

والملاحظ منذ قديم الزمان، أن اللغة العربية الفصحى لم تكن هي الحياة المجارية للعرب، بل إن اللهجات التي تختص كل منها ببلد معين قد قادت إلى جانب اللغة العربية. وقد نبهنا الماحظ (ت 255هـ) إلى أن النكتة الملقة باللهجة العامية إذا ق ام أحدهم بتحويلها إلى اللغة العربية الفصحى باخت، وفقدت طعمها وتأثيرها. ولدينا في التراث العربي بعض الأمثلة على العلماء الذين كانوا يصررون على الحديث بالفصحي في الأسواق، فكان يتم الاستهزاء بهم، والمسخرية منهم!

لكن مشكلة الماهجات العالمية في العالم العربي تتمثل أولاً في أنها غير قابلة للكتابة أو المتداين. وكل المحاولات التي تمت في هذا المصدد باعت بالفشل. ثانياً: أن لهجة بلد معين لا تفهم بسهولة في باقي البلاد الأخرى، مما يجعلها دائمًا محلية المطبع، أما اللغة العربية الفصحى، وخاصة عندما تخلي من الإغراب والمعاشرة، فإنها تكون مفهومة من سائر الأفراد في الوطن العربي، والمذين يعيشون في خارجه أيضًا. والنموذج لذلك واضح من نشرات الأخبار في الإذاعة والتلفزيون.

ولما شك أن وسائل الإعلام الحديثة (الصحافة والماذعة والتليفزيون) قد ساهمت بقدر كبير في نشر اللغة الفصحى، وإشاعتها، واستقاء الأخبار والمعلومات منها بأيسر المطرق. وهنا لابد أن نحيي بعض المعنويات الفضائية التي تحرص على تقديم اللغة العربية الفصحى للمشاهدين صافية من الألفاظ الصعبة، صحيحة من جهة الماء، قادرة علىتناول كل الموضوعات دون تعثر.

أما في مجال التعليم فما زال الموضع مأساوياً. حيث يقضى التلميذ العربي اثنى عشرة سنة في تعلم قواعد النحو والصرف، ثم يخرج بعدها غير قادر على إنشاء جملة مستقيمة، وحالية من الملح. فما المسبب في ذلك؟ وكيف نصلح المأوضح؟ وبأى الموسائل؟ - هذه الأسئلة هي التي تستحق منا أن نتوقف أمامها لنبحث عن إجابات مناسبة لها. لكن المهم في تلك الإجابات ألا تكون ذات طابع نظري أو تنظيري فقط، بل لابد أن تكون قابلة للتنفيذ، وأن تجرى تجربتها أولاً بصورة جزئية، فإذا ثبتت صحتها، تم إقرارها وأصبحت صالحة

اللغة العربية والتواصل الحضاري

يبين تاريخ اللغة العربية أنها مرت بفترات قوية أزدهار، كما عانت من فترات ضعف وجمود. وإذا ألقينا نظرة سريعة على القرون الخمسة الأولى من الهجرة، وجدنا اللغة العربية تشهد نهضة وشيوعاً، كما أن المؤلفات التي وضعت بها تتميز بالكثير من الأصالة والإبداع. والملاحظ على اللغة العربية في تلك الفترة أنها لم تتقوّق على نفسها، أو تنعزل عن غيرها من اللغات الأخرى، كما أنها لم تُقص أو تستبعد منْ لم يكونوا يتحدثون بها بصورة صحيحة. وحسبنا في هذا الصدد أن نلقي نظرة أخرى على مؤلفات الماجحذ (ت 255هـ) الذي عاش في منتصف الفترة التي نتحدث عنها لنشاهد مدى افتتاحه على ثقافات الأمم الأخرى، سواء كانت الهندية، أو المدارسية، أو اليونانية، كما أن طبقات المجتمع بكل فئاته الغنية والمفقرة كانت موضع اهتمامه. وسوف يأتي من بعده إخوان المصafa (القرن الرابع الهجري) لكي يوردوا في رسائلهم التي شاعت بين الناس أقوالاً من الموراة، والإنجيل، وفلسفة اليونان، وحكمة الهندوس، وديانات المفرس، إلى جانب آيات القرآن الكريم، والأحاديث النبوية.

ومن الموضخ أن هذا يدل على أن ازدهار اللغة العربية مرتبط إلى حد كبير بانفتاح أهلها على ثقافات الأمم الأخرى، والاستمداد المواتي لما فيها من عناصر جيدة تضيفها إلى مقوماتها الذاتية. لأن اللغة كما هو معروف ليست مجرد حروف ولفاظ وتراكيب وإنما هي صورة حقيقة للفكر البشري. وبالتالي فإنها ترتفع بارتفاعه، وتهبط بانخفاضه. وسوف تتجلى هذه الحقيقة في الفترة التي أعقبت المcroft المخمسة الأولى من الهجرى، حينما انعزل المسلمون بفعل عوامل سياسية واجتماعية فتوقفت عندهم حركة الفكر التى كانت غاية فى النشاط، وتجمد مع هذا المتوقف تطور اللغة، والتى انكفت على نفسها، وراحت تجتر ذاتها فى أساليب التزويق البلاغى ، والمسجع البارد المحجوج، ومنظومات العلوم والتى عقدتها ولم تقدم للمتعلمين بها أى فائدة إيجابية.

لكن عندما بدأ اتصال العرب بأوروبا فى مطلع العصر الحديث، عادت اللغة العربية تستعيد مكانتها، وخاصة بعد حركة الترجمة التى قام بها رفاعة الطهطاوى وتلاميذه، حيث قاموا بترجمة ما يزيد على ألف كتاب فى مختلف العلوم والتى كانت قد اندثرت فى العالم العربى.

إن هذين المثالين يضعان أمامنا حقيقة ذاتية، وهى أن اللغة العربية تحيا فى زمن التواصل الحضارى مع شعوب العالم، وتنكحها حين تفقد هذا المتواصل.

ولليائسين من نهضة اللغة العربية أقول : إنها فى زمن وجود العرب والمسلمين فى الأندلس كانت هى المكنز الذى استمدت منه أوروبا علمها وثقافتها. وقد قام يهود الأندلس، الذين عاشوا بكل حرية تحت حكم المسلمين، بدور هام فى نقل رواية التراث العربى والإسلامى إلى اللغة اللاتинية التى كانت منتشرة حينئذ فى كل الدول الأوروبية، ومن خلال هذه الترجمات لم يقف الأوروبيون فقط

على المتراث العربي والإسلامي، بل عرضاً أيضاً المتراث اليوناني الذي حافظ عليه العرب، وصانوه من المضيّع.

نحو مستقبل اللغة العربية

نحن نعيش الآن في عصر العولمة، الذي أسقط كل الحواجز الثقافية بين شعوب العالم. وفي هذا العصر الذي أصبح التواصل فيه هو المسمة الغالبة، فإن اللغة العربية أمامها آفاق واسعة للتطور والانتشار. أما المتتطور فهو من مسؤولية الباحثين المتخصصين فيها، وفي مقدمتهم أبناء دار المعلوم سواء من كبار الأساتذة أو الشباب الصاعد. وأما الانتشار فإنه يأتي من استخدام شبكة الإنترنت التي أصبحت سكان العالم كلهم يتواصلون من خلالها، وهي تحتاج فقط إلى الإمام بتقنياتها، والإفادة من إمكانياتها.

وإذا كان لي من حديث شخصي - وأنا أقوله كارها - فقد أنشأت على هذه الشبكة موقعًا أدبياً وثقافياً وإسلامياً سنة 2004 ، وتم تطويره في عام 2010 ، وبلغ عدد زواره حتى الآن (815) ألف من كل أنحاء العالم ، ويسعدني أن أخبركم فقط عن إحدى مفرداته، وهي المخصصة ببحث نشرته بعنوان (الحكمة في شعر المتنبي) قد بلغ عدد زواره وحده حتى الآن (16) ألف زائر. قولوا لي - بالله عليكم - هل يطبع كاتب أو باحث أن يقرأ عمله مثل هذا العدد إذا كان مطبوعاً على المورق؟!

وفي ختام كلمتى ، أدعوا الله تعالى أن يوفق العرب لنشر لغتهم ، والعمل المتواصل على تأصيل مكانتها ، وتربيبة المأبادء والمبادرات على حفظ بعض آيات القرآن الكريم ، وأحاديث الرسول المكريم ، فهذه من المبادرات الأساسية فى تدعيم البناء ، وزيادة تماسكه .

والله ولى التوفيق ،،،